

جيل السّراب

سوف عبّيد

هذه شهادة حول السّيرة الدّائّية قدّمتها في ندوة انعقدت بالمركز الثقافي الدّولي بالحّمّات في أوائل شهر أوت سنة 1991.

وأنا على مسافة 8000م فوق الأرض أفكّر في المشاركة في هذا الملتقى عائداً من مهرجان جرش بالأردن والمضيّفة الجميلة والأنيقة في الدّهّاب والإياب بين الجالسين هي الوحيدة التي تقطع الرّحلة بين مطار تونس قرطاج وبين مطار الملكة علياء سيّراً على الأقدام.

أبدأ إذن بتبليغ التّحيّة التي حمّلتني إيّاها الأصدقاء الأدباء المشاركون في جرش الذين حدّثتهم عن هذا الملتقى وهم يتمنّون لو كانوا حاضرين معنا. هكذا تتداخل الأزمنة على جناحي هذا الطائر الحديدي. فمن كان يظنّ أنّ ذلك الفتى الذي منع من دخول الأمسيات الشعريّة التي انعقدت بمناسبة مؤتمر الأدباء العرب بتونس سنة 1973 سيساهم في تنظيم نفس تلك الأمسيات وبمناسبة نفس ذلك المؤتمر سنة 1990؟

سنوات من جمر. سنوات من ورق. سنوات من أرق. سنوات من أشوق. سنوات من أصدقاء سنوات من بكاء وسنوات من سراب وسنوات من 1967 إلى سنوات 1991.

في جوان 1967 خرجنا من المدرسة الصّادقيّة متظاهرين ثائرين ضدّ سفارات أمريكا وفرنسا وبريطانيا مرّدّين "فلسطين عربيّة". أعتقد أنّ هذا التاريخ هو المحدّد الجوهرى الذي انبثقت منه تجربتي الفكرية والسياسية وحدّدت منطلقاتي الأدبية حيث تركت هذه السنّة أثراً عميقاً في وجداني. أنا من جيل نشأ في مناخ كلّ شيء فيه كان يدعونا إلى إعادة طرح الأسئلة حول الثّوابت. إنّها سنوات الحيرة الكبرى والصّدمة التي أذهلتنا.

في المدرسة علّمونا أنّنا خير أمة أخرجت إلى النّاس ولكننا فتحنا أعيننا على الهزيمة والتجزئة والتخلف والإستبداد.

كانت تونس وقتها تعيش سنوات الغليان في الجامعة وفي الشّارع وفي الثقافة التي انطلقت بالدعوة إلى التّجديد في كلّ مجالات الإبداع سواء في المسرح حيث أنشئت الفرق الجديدة مثل فرقتي الكاف وقفصة. أو في الرّسم حيث ظهرت تجارب جديدة ثارت على مدرسة تونس للرّسم وأسست لنفسها طرائق مختلفة في الأشكال والألوان وكذلك في القصة التي سلكت مسلكاً مستحدثاً في الكتابة يناقص النمط القديم إنّ أسماء مثل عزّ الدين المدني وحسن نصر في هذا المجال كانت تستدرجنني إلى الغريب في أمر الكتابة بالإضافة إلى أسماء في الشّعر كانت هي أيضاً

تستهويني بمخالفتها للسائد وللقديم مثل الحبيب الزناد والطاهر الهمامي وفضيلة الشابي بالإضافة إلى المدين عمقوا في المعرفة بالتراث والآداب الأجنبية مثل شيوخي الأجلاء في كلية الآداب صالح القرمادي وتوفيق بكار ومحمد السويسي.

لقد فتحت عيني مبكراً على الأدب الجديد فمجلات الآداب البيروتية والتجديد التونسية بالإضافة إلى مجلة الفكر والملحق الثقافي لجريدة العمل كلها كانت تصل إلى ابن عمي الحبيب عبيد الذي كانت له كتابات أدبية في أوائل الستينات وله أيضاً مراسلات مع الأديب مخايل نعيمة. وقد كنت أرافقه إلى المكتبات حيث كان يطلعني على أدباء المهجر خاصة. لكن ابن عمي هذا هجر الأدب والأدباء بالرغم من أنه بدأ بداية مشجعة فلقد فاز بجوائز مهمة من برنامج هواة الأدب الذي كان يشرف عليه الشاعر أحمد اللغماني.

إن الجيل الذي أنتمي إليه كان منتمياً إلى نظرية الصراع الطبقي ومؤمناً بالحرية إلى أقصاها وملتزمًا بقضايا الشعوب المكافحة ضد الاستعمار والإمبريالية.

لقد قرأنا القرآن وأمنا بثورة الرسول على الأغنياء ودعوته إلى العدالة الاجتماعية وقيم التسامح والإخاء والرحمة والعلم والمعرفة والقوة أيضاً بالإضافة إلى قراءتنا للتراث الفكري والأدبي العربي والعالمي.

إن أسماء مثل الغفاري والحلاج ولوركا وناظم حكمت وغيفاراً كانت تمثل بالنسبة إلينا منارات فكرية وأدبية برغم اختلافها وتباين تجاربها.

هذا الجيل أيضاً كان يرى في الشابي تجربة فريدة حيث أنه تمكن من فرض تجربته لكن تجربة الشابي لم تتواصل من بعد في تونس مع الأسف وعوض أن يتواصل التجديد مع الجيل اللاحق انكفأ هذا الجيل الشعري عموماً على نفسه ولم يجذر صلته بالحدثة ولم يربط مع المشرق ولم يتفتح على الآداب الأجنبية إلا نادراً.

إن الجيل الذي أنتمي إليه نشأ يتيماً في ساحة ثقافية خالية من التقاليد وتفتقر إلى الرموز، لقد كان علينا أن نؤسس من الشطايا وأن نتقدم على السراب. لقد كنا في صراع مع المؤسسات الثقافية لأنها لم تكن تسمح لنا برفع أصواتنا. لكننا استطعنا أن نفرض عليها تجاربنا وتصوراتنا بفضل صمودنا وتضحياتنا وكذلك بفضل انفتاحها هي أيضاً علينا نتيجة لتطور المجتمع التونسي من ناحية أخرى.

ثمة مسألة مهمة تتمثل في نزول عدد مهم من الأدباء العرب بتونس بمناسبة إقامة الجامعة العربية بتونس وباستضافة منظمة التحرير الفلسطينية بالإضافة إلى دعوة كثير من الأدباء التونسيين إلى منابر أدبية عديدة في المشرق.

كل هذا أعطى الأدب التونسي دفعا مهماً بحيث تبوأ منزلة محترمة إلى جانب أدب الأشقاء ولعل هذا الجيل الذي أنتمي إليه ساهم في ربط الصلة من جديد بين جناحي الأدب العربي. هذا الأدب الذي يمر الآن بمحنة تهدد الوجود العربي نتيجة لتشتت الأمة العربية ونتيجة لسيادة منظومة الاستبداد

والقهر والتخلف ونتيجة كذلك لتحالف القوى العدوانية في العالم.
إننا نعيش حقاً مرحلة خطيرة كلُّ شيء فيها يدعو إلى الوقوف كي نظلَّ
موجودين على خريطة العالم. فدور الكلمة مازال مطلوباً بل نحن في
حاجة إلى الكلمة وليس الكلام من بعض معانيه الجراح.
في الجرح تنبثق الكلمة
عاشت الكلمة
عاشت الكلمة

سوف عبید 31 /07/ 1991